

وزواله اذا خشيها بالتحليل ، فكيف يجتمع في عقل او شرع تحليل هذا وتحريم النعمة - هذا مع ان النعمة ايجت في أول الاسلام وفضلها الصحابة وافق بها بعضهم بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونكاح المحلل لم يبح في ملة من الملل قط ولم يفضله أحد من الصحابة ولا اتفق به واحد منهم ؟

(ثم قال المصنف) وليس الغرض بان تحريم هذا المقعد وبطلانه وذكر مفاسده وشرفه فانه يستدعي سفرا ضخما مختصر فيه الكلام وانما المقصود ان هذا شأن التحليل عند الله ورسوله واصحاب رسوله فالزمهم عمر بالطلاق الثلاث اذا جمعوها ليكفوا عنه اذا علموا ان المرأة تحرم به وأنه لا سبيل الى عودها بالتحليل . فانه لما تغير الزمان وبعد عهد الناس بالسنة وآثار القوم وقامت سوق التحليل ونفقت في الناس فالواجب ان يرد الامر الى ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته من الإبقاء بما يعطل سوق التحليل او يقللها ويخفف شرها . واذا عرض الى من وفقه الله وبصره بالهدى وفقهه في دينه مسألة كون الثلاث واحدة ومسألة التحليل ووازن بينهما تين له التفاوت وعلم أي المسألتين أولى بالدين ، وأصلح للمسلمين .

« فهذه جميع المسألتين قد عرضت عليك ، وقد أهديت ان قبلتها اليك ، وما اظن عني التقليد الا يزيد الامر على ما هو عليه ، ولا يدع التوفيق يشودك اختيارا اليه ، وانما اشرنا الى المسألتين اشارة يطالع العالم على ما وراءها وبالله التوفيق » اهـ

(القسم العمومي)

﴿ نظام الحب والبغض ﴾ (تابع ويتبع)

(٢) ماهو الحسن ؟ — قد عرّفتم بالذي قلناه في تعريف الحسن ماهو الحسن . وبقي ان أقول لاجل تذكير القارئ بأصل الموضوع انه هو الزينة من غير نظر منا الى الفرق بين الحسن الذاتي والحسن الصناعي .

(٣) ماهو الاستحسان ؟ — هو انبساط النفس لذلك الشيء الذي وجدت فيه ما يناسبها . ليست الصعوبة في تعريفه بهذا الرسم وانما الصعوبة في معرفة ان الاستحسان يحصل لامرء بالبداهة أو بالنظر والتأمل وقد سبق شيء من الاشارة الى هذا الامر

ولكني لأراء مستقبياً عن زيادة الشرح . أما استحسان بعض المحسوسات فيحصل للبعض بالبداهة وتعقبه حجة . ولهذا السرّ ظن البعض ان الحب يكون اضطرارياً على ان هذا السر وان بقي غامضاً لا يثبت هذه النظرية بمثل هذه الحوادث القذرة ثبوت ضد هذه النظرية ببراهين حسية وعقلية معاً . وأما استحسان كل المقولات فمن أهل التفكير نتيجة نظر وتأمل ومن أهل التقليد نتيجة ثقة بالمقلدين . والاولى ان لا يبد استحسان هؤلاء استحساناً لأننا اذا أدخناهم في صف من لا فكر لهم من المخلوقات لم نكن عملنا غير الصواب لأنه هو المطابق لروح الواقع ونفس الامر .

(٤) ماهو حب المستحسن ؟ — تقدم تعريف الحب وليس سؤالنا عن تعريفه بل عن ذلك السر المودع في طبيعة النفس من حجة أشياء تعتبرها حيلة . واملّ ذلك السر هو شوقها الطبيعي الى ما وراء جسمانية المادة وما يالحقها من الجملدية المحضة .

(٥) لماذا نستحسن ؟ — هذا السر مودوع في نفوس الخاصة والعامة من بني اتون . ولما اوتينا المزية العظيمة التي تسمى « الارادة » اراد القاطر ان تجلي فينا ظاهرة باهرة فانقسمت الاشياء في نظرنا كافة الى ما توجه نحوه ارادتنا وهو ما نستحسن والى ما تصرف عنه وهو ضده . فهذا هو السرّ في كوننا نستحسن .

(٦) لماذا نحب الحسن ؟ — يظهر بالذي قلناه سر حبنا الجميل وزيد عليه علة لا يتوقف في فهمها انسان وهو اننا نحب الحسن لنعمل . فلولا ذلك لقمنا بما تبت الارض من كلاً ، وما تفيض به من ماء . ويظهر من ملاحظة سير الماضين والهابرين ، وسنن الوجود في الاولين والآخرين ، اننا لم نخاق لمثل هذا بل خلقنا لاسرار عظيمة لا تظهر فينا الا بحبنا الحسن والحسن .

(٧) لماذا نختلف بالاستحسان ؟ — اذا كنا نحب الجميل لنعمل فنحن نختلف بالاستحسان لتختلف اعمالنا . على ان لاختلفا في الاستحسان عللاً أخرى منها اختلاف الامزجة . وبيان السر في اختلاف الامزجة لا يبعد عن صدد علمنا هذا ولكنه قد يبعد عن صدد هذا الفصل او قد يبعد بنا عن الغاية التي اشرقنا عليها . وكذلك لاختلفا في الأعمال علل أخرى ولكن الذي ذكرناه هو من أقدم الاسباب .

(٧) ماهو عشق المستحسن الذي يميل بكل نحو مستحسن فيغرم به ؟ — يعني علمنا

سؤال عن أمر آخر غير الحب المعتاد وهو العشق الذي مبلغ العلم فيه انه أعظم درجات الحب ومنتهاه . والجواب على ذلك في غاية السهولة وهي ان النفوس قوابل ، والواردات عليها فراعيل ، وبعض النفوس أشد قبولا وانفعالا لما تعرضت له من الواردات فيصيرها العشق الذي هو أعظم الحب في حين ان كثيرا من اخواتها اللاتي يتعرضن لمثل ما تعرضت هي له لا يصيبهن الا الحب البسيط وكثيرا من غير أولئك لا يصيبهن شيء ما .

هذا وان فيه لبلاغا في بيان الموضوع ، وكشفا لبعض السر المودوع ، ويحار فيه من لم يرد من البيان مشاركته ، ولم يذق من التقريره . شاربه ، وأرثكم ليسوا من أهل النار ، ولا نلهم في مثل هذا الكلام المدار ، وحسب أولئك مما تقدم ان يسمعوا هذه الخلاصة : « لولا حب الزينة لما كان من حاجة الى أكثر الصنائع . ولولا كثرة الصنائع لما توفرت أسباب الاجتماع . ولولا الاجتماع لما تبودلت الافكار . ولولا تبادل الافكار لما حصلت المعارف الا انسانية . ولولا المعارف الانسانية لكانت حياة الانسان كحياة البهائم . » ولو شئنا لشرحنا هذا الكلام بفصول كثيرة ولكننا تقللنا منه بما سبق ، وفي هذا الترتيب الذي وضعنا وضوح تام ، وللعمرانيين ههنا شركة في البحث والبيان ، وتركنا لهم وظيفتهم التي هي البناء بعد اداء وظيفتنا التي هي الاساس .

ولكيلا يفوتنا النصيب من تصحيح افكار أولئك الذين نعلمهم ناقلين على حب الزينة ونعلم انهم سينتمون منا تمثيلنا حب الزينة هذا التمثال الذي ستره البصائر نفخيا ، وكأني بهم رافعين عقيرتهم يقولون هل يحبى الناس منه الا الدأب والكد العمر كله في طلب الفواني ، وهل في سبيل هذه المحبوبات التي لا تنتهي الا الوقوع في أنواع الرزايا المعروفة ؟ لكيلا يبقى هذا الاعتراض بلا جواب نقول : ان الذي قلناه هو وصف لامر واقع على سبيل العموم والشمول لاحت وحض على حب الزينة ، وان الذي نعلمه ان ذلك الامر الذي وصفناه طبعي لا يصده عن النفوس ان ينقم الناس عليه كما ان الاكل مهما سبناه لا نستغني عنه ، ثم اننا نعلم انه لا يقول ذلك القول الا واحد من ذينك الاثنين الضدين المتسفل في دركات العواجز من الحيوانات التي تكره الحركة وتهوى السكون ، والمتسامي بعقله الى ما فوق الفواني المتجاني عن الزوائد من مقومات الحياة المادية نشوقا الى المقولات العالية . ومن عجب ان نجذب في قولهما مع اختلافهما في نيتيهما ، ولم يكن

ذلك إلا أن الثاني فاته حكمة الاعتبار بأصل الفطرة وسرها وفاقه النظر الى الواقع ونفس الامر، ولم يبق عاينه إلا أن تنظر هل يجوز لنا أن نهى عن حب الزينة والجمال؟ والجواب: لا يجوز لنا ذلك لأنه لا يجوز لنا أن نحاول العبث . وهذا هو وجه الحقيقة الذي لاح لاهل عامنا فشهدوا كما رأوا . وعلماء العمران سترهم يقيمون اشد التكبير على رجل يقول بجواز النهي عن حب الزينة . ونحن في أمن من هذا لو غي لا تألأزيد على قولنا: « انه لا يفيد » وليس في هذا القول مصادمة لقاعدة ان الحب يدخل تحت « نظام » لا تألأ نخرجه عن النظام بهذه الكلمة ولكن الآخري يريدون أن يخرجوه عن الوجود لا عن النظام فقط . ويوضح هذا مثال : « اذا قلنا لا يجوز النهي عن الأكل مطلقا لأنه لا يفيد اذ هو امر بتغيير الفطرة » فلا يفهم احد قط من هذا الكلام انه لا يدخل الأكل تحت نظام ، فلينظر ذو فمكر ما يقول :

وقديذهب ظن القاري الى ان محرر هذه الكلمات رجل من غلاء المفتونين بهذه الصور المتحولة الفانية وتلك المادة الجهاد الحادثة واني لا احاسب الناس على ظنونهم ولكن من يحاول التعريف بشيء عن نية سافية يحرص على مقصوده أكثر من ذي اجرواني حريص ان يأخذ قاري كلامي بالنصيب الا وفي من علم طبيعة النفوس من حيث المجموع مع مراعاة حالاتها في الاجتماع وحالاتها الشخصية فأني على يقين ان هذا العلم يورث صاحبه سلامة ذوق وسلامة صدور وسلامة فكر ويؤديه الى الاعتدال الذي هو محور نظام الاصلاح،

ومن أجل ذلك اذكر القاري بما استخفظه اياه في صدر الكلام ومنه يعلم أن قليلا من التدبر يكشف عوار كثيرين من الذين كتبوا في الاخلاق والشرائع ويحلى محاسن المحسنين . ومن ههنا خالف الذين يهون عن صرف شيء من المال في سبيل حب الزينة ولا أجد في مذهبهم ذلك رائحة من الحكمة قط بل هو جهل بطبائع الاجتماع فانه لن بعدم الخاسر ما يستعوض به من الراجح، والالعدم البائع من يتناع .

ومن المؤمنين بما قررناه قائل يقول : قد يحتاج الفرد وهو ساج في الاوهام بحب الزينة الى من ينبيهه الى الاخطار وهو حق ولكن عندي ان يكون المنبه من نفسه في مثل هذه الحالة خيرا من ان يكون من آخره . لربح في هذا التمودأمر هو أعز وأغلا من المال الذي نخسره . ذلك هو التفكير وصدق الارادة في مباشرة الاشياء . ولا

نك بأننا سنلقي أسارى كثيرين في هذا الممارك قد قيدتهم الشهوات الكاذبة بأغلال الحسار، وقذفت بهم الارادات المريضة في مهاوي الدمار، ولكن أن نعدم امثال هؤلاء الاسرى وان كثروا خير من ان نعدمهم من ابطال الجهاد في هذه الحياة . وخير من ان لانعدمهم وكثيراً ما يختلف طب النفوس عن طب الابدان لان أحدها يعالج مرضاً محسوساً بعلاج محسوس . والآخر يداوي مرضاً معقولاً بدواء معقول ولا طباء النفوس في هذا الباب أدوية - لو استعملت - شافية ولكن الناس اعاروها آذاناً صماً ويريدان يكون لهم علاج من المحسوسات ذلك ما تعطيه مجاري الاحوال وينتج صحة التفكير وسلامة الارادة .

وآخرون سيقولون لقد أسرف هذا وكاد ان لا يرى في الاسراف شيئاً مذموماً . كلا ان الاسراف مذموم عندي كما هو عند الناس كافة ولكن الذين يهون عنه هو مادون الاسراف وهو الذي لا تهى عنه . ولا أريد من هؤلاء أكثر من ان يعلموا انه لو لان نصرف المال فيما زين لنا ما وجد المال . ولكن علم هذا صعب عليهم ونهونه بأن نعلمهم ان المال ليس شيئاً غير قيمة جملة الاعمال التي يعملها النوع واذ اعلموا ذلك فليتركوا انه لو لاحب الزينة لما كان من حاجة إلى أكثر الصنائع ، لو لاه لا قفلت أسواق ومصانع يعمل فيها حاج للناس من غير اللوازم الضرورية التي لا تتجاوز ما مثله آتقانم الغذاء والكساء والاواء .

ما اذ زين هؤلاء بعض هذه الاسواق والمصانع ودور ان فلك الاعمال على هذه الاقطاب الحالية وما داناها في الماضي وما سيفوتها في الآتي فما البأس على اذا دار الفلك على حسب احلامهم وأعمال البأس على قوم يبلغ بهم الهوس ان يروا الخير والسعادة في أولي السير من الحياة وهي سيرة الانس بالاو جاروا الاحجار ، والفزع من خطور الاشباح وهبوب الارواح (*)

﴿ نتيجة عظيمة ﴾

وما قررناه أساس متين لبناء نظامي الاخلاق والشرعية . يبنى عليه في الاخلاق ذم جهود النفس الذي من لوازمه لسيان الحظ من الحياة النوعية الا ما وجدت عليه الآباء . وذم غلباتها الذي من لوازمه تجاوز الحدود التي وضعت لحفظ الحقوق . ومدح الاعتدال . وفي التمهيد نحوت المنحى الذي يفهم منه ذم جهود النفس لانه الغالب في مشرقنا . ويبنى عليه في الشرعية الحرية في المطاعم وموائدها ، والملابس وازياؤها ،

(*) جمع ريج وهو يأتي هكذا كما يأتي جمع الروح

والمباني واشكالها ، وغير ذلك من الحاجات الاوازم والتوابع وكل شريعة لم تُبَنّ في هذه الابواب على مثل هذا الاساس لا يقوم لها بنيان . ولا يوفق الناس أعمالهم على احكامها وان تلوا حروفها . واذ كانت كل شريعة تنسخ ما قبلها كانت تتقرب من هذا المعنى بحسب ترقى النوع ولذا كانت الشريعة الاخيرة حائزة هذا المعنى تماماً .

وحرم منها ما يضر بصحة العموم . وما يصادم نقماً عاماً أو حقاً خاصاً . وما يجمع علماء الاخلاق على مضرة بجوهر النفس . وهذا التحريم في الحقيقة معين على صيانتها وحسن التصرف فيها والمطالعون سيدركون ما وراء هذه الجمل من التفاصيل . ومن عداهم سيأتهم التفصيل في مواضع متعددة وحسبهم الآن ان يتدبروا هذه النتيجة ويفكروا فيها بفكر نقي .

﴿حب التميز﴾

في الفطرة زيادة على حب الزينة حب التميز فلو لا هذا الثاني لبغنا نهاية فيها نحب من الزينة أو غيرها ولكن هو الذي أبعد الغاية على الطالبين .
والذين هم أشد حبا للزينة هم أشد حبا للتميز ، وعند التأمل في آثار هذه الطبيعة نجدها ينبوعاً للخيرات والذرور معاً . وهكذا نجد الشر موجوداً دائماً في منابت الخير ولذلك كان تحصل الخير في هذه الحياة عناءاً كبيراً كالغناء في تحصيل الخطوة من بين الشوك ثم تميزها من الزؤان بل هو أكبر . ولكن أجر هذا العناء عظيم وهو بلوغ الانسان كماله الممدله . وقد يقصر حجابنا الآن عن تصور ذلك الكمال وما من يتقدم الا معاوناً لمن يتأخر .

وفي خلق الانسان آيات للمتدبرين ، واسرار للمقبرين ، منها تكريم هذه الصوامت التواطق بلسان الحال عن ان تكون عبثاً اذ على يده تظهر خواصها وفي فكره وبصره تجلّى جمالها المعقول والمحسوس تحقيقاً أو اعتباراً أو تخيلاً . ولحب التميز الحظ الاوفر في استخدام الفكر في هذه الشؤون . فهو الذي يبيت الفكر في عالم المحسوسات والمتخيلات رائداً يرتاد للنفس ما هو غريب عزيز الوجود مما يود كل أحد ان يقتنيه أو ينتحله . وهكذا كانت زيادة الاول على الآخر وسيكون ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب الاولين .

والحاصل ان حب التميز ميزان في كفته الواحدة أمر نسبي حسنة وهو ارتقاء الحياة النوعية . وفي كفته الأخرى أمر نسبي سيئة وهو حرص النفوس على الاستبداد . والناس يفهمون من هذه الكلمة — الاستبداد — ان المقصود به عدم المشاورة وهذا المعنى جزء مما تدل عليه هذه الكلمة التي معناها الحقيقي نزوع النفس للحرية المطلقة التي من جعلها تقييد حرية الغير وغصبها وهذا هو وجه شناعته ومن أجل هذا كان عنصر الشرور المادية والأدبية .

وقد كدنا ان نأثس لما علمنا ان هذا العرق الضارب في اعماق الطبيعة البشرية لا يمكن استئصاله بالقطع لولا ان تبين لنا أن في ازاء هذا الشوك زهراً ولولا ان ثبت لنا انه يمكن تخفيف ما ينجم عنه بتنبع الفروع وقطع ما يمكن قطعه منها والربانيون من الحكماء أشد الناس عداوة للذين يستبدون ذلك بما عرفوا من الحق ، وبما عطفوا على الخلق ، وبما تدفعهم اليه قوة العلم ، ومثمة العزم ،

والاخلاقي حسب ان يذكر المستبد بثلاثة أمور لا تفارقه ولا غيره : المعجز بالذات ، والاحتياج للغير ، واستحالة بلوغ الغاية ، وان يذكر المستبد عليهم بثلاثة أمور أيضاً الضعف بانحلال الرابطة ، وانقوة بالتعاون ، والفوز بالثبات والصبر .

والسياسي وهو البحوث عن كل روابط الاجتماع لأستكثر منه ان يحمل أوزار الوغى ان استطاع في رد كيد المستبدين الذين وضعوا أعمالهم في كفة السيئة من حب التميز وبش ما اكتسبوا لانفسهم من البغضاء . وللمندعنون لهم شر مكاناً وأضل عن سبيل الحياة النوعية . وأقرب الى الهوان من الانعام وفي هذا بلاغ لعملهم يتذكرون ،

(ثمة بقية) ع.ز

